مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 09 عدد: 02 السنة: 2020
ص: 523 -536 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

قراءة في ترجمة الخطاب الصوفي لابن عربي
Reading in the Translation of Sufi Discourse of Ibn Arabi

[*]سليم رابح سلامي (ط. د) [1]، د. مريم فلاق عريوات[2]
Salim Rabah SELLAMI[1], Meriem FELLAG ARIOUAT[2]
جامعة الجزائر 2، معهد الترجمة، مخبر ترجمة الوثائق التاريخية (الجزائر)
Translation Institute of the University of Algiers 2/ Algeria
com.univ.alger2@gmail.com

تاريخ الإرسال:2019/12/07	تاريخ القبول: 2020/03/16	تاريخ النشر: 2020/06/02

ملخص البحث

نحاول من خلال هذا المقال التطرّق إلى التّصوّف وترجمة الخطاب الصوفي للحكيم محي الدين ابن عربي إلى اللّغة الاسبانية، والذي يعدُّ من أقدم الرسائل الداعية إلى فكرة الحوار بين الحضارات والأديان. هذا التوجّه الرائد في فكر المتصوّف الأندلسي ما هو إلا نتيجة للفترة التي عاش فيها في القرن الثاني عشر والثالث عشر الميلادي بالأندلس والتي كانت تشهد صراعًا بين الديانات الثلاث اليهودية المسيحية والإسلام. كما نسعى إلى إظهار أهمية التّرجمة باعتبارها وسيلة الحوار بين الحضارات في انقاذ إرث محي الدين ابن عربي من النسيان الذي لازمه طيلة قرون.

الكلمات المفتاح: تصوّف؛ خطاب صوفي؛ ابن عربي؛ ترجمة.

Abstract :
In this article, we are trying to get to the translation of the Mohi-eddin Ibn Arabi's Sufi discourse into Spanish, which is considered one of the oldest messages that is calling and encouraging the idea of dialogue between civilizations and religions. This pioneering in the thought of Andalusian mystic is only a result of the period in which he lived in the twelfth and thirteenth century AD in Andalucía, which was in conflict between the three religions. We also seek to highlight the importance of translation as a mean of dialogue among civilizations in saving the legacy of Mohi-eddin Ibn Arabi from the oblivion that has persisted for centuries.
Keywords: Sufism; Sufism Discourse; Ibn Arabi; Translation.

[*] سليم رابح سلامي. salim.sellami@univ-alger2.dz

مقدّمة:

إن خطاب محي الدين ابن عربي الذي استوحاه من الفترة التي عاش فيها في الأندلس والتي كانت تشهد صراعًا بين الديانات الثلاث، ومن الأفكار التي جمعها من الشرق والغرب كان ولا يزال مقصداً يتوجه إليه الغرب من أجل ترجمته واستخلاص القيم الحضارية التي تتجلى فيه، إذ يشكّل التَّصوّف الإسلامي وتصوّف ابن عربي بشكل مُنفرد نقطة هامة وحلقة أساسية في تحقيق الوحدة الحضارية.

تتجاوز مُهمة التّرجمة نقل المفردات والمعاني من لغة إلى أخرى، إذ تعتبر حلقةً وجسراً يربط بين الشعوب والحضارات فيما بينها وتمثل كذلك مُلتقى للثقافات العالمية المختلفة لتشكّل بدورها نقطة انطلاق ثقافات جديدة تجمع الشعوب باختلاف أفكارها وآرائها. فلا طالما لعبت الترجمة دورًا أقل ما يقال عنه أنه مهم بوصفها وسيطًا ثقافيًا بين الشعوب والمجتمعات وكذلك في نشر فكر وخطاب الشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي بعد قرون من النسيان في الغرب وفي اسبانيا على وجه الخصوص، فهل تمكّنت الترجمة من نقل القيم الحضارية المتواجد في الخطاب الصوفي لابن عربي؟

والجدير بالذكر أنَّ التّرجمة ليست مجرد أداة لنقل المعرفة بين الشعوب والحضارات المختلفة، وإنما هي آلية تسهم في البناء الحضاري الذي يقوم على الاختلاف والتّحاور. ومن هذا المنطلق، فإنَّ هدفنا من خلال هذا البحث هو ابراز دور التّرجمة باعتبارها إحدى وسائل هذا الحوار الحضاري في نشر الخطاب الأكبري.

يشتمل بحثنا هذا على ثلاثة محاور رئيسية، تطرقنا في المحور الأول إلى التّصوّف والخطاب الصوفي، وتناولنا في الثاني شخصيّة ابن عربي وخطابه، أما المحور الثالث والأخير فخصَّصناه لترجمة خطاب محي الدين ابن عربي. وقد توصَّلنا في خاتمة ورقتنا البحثيّة إلى إجابة نهائية عن الإشكاليّة المطروحة أعلاه.

أوّلا–التّصوّف والخطاب الصوفي:

تعود أصول التّصوّف الإسلامي ومرجعتيه أساسا إلى مختلف النّصوص الدينيّة الإسلامية على غرار الآيات القرآنية وأحاديث السنَّة المحمديّة، "التَّصوّف ليس مذهبًا أو فرقة، بل مدرسة سنّية أصيلة، سنجد جذورها ومرجعياتها مبثوثة في آيات القرآن الكريم والسنّة النبويّة الشريفة. هو علم إلهامي له أصوله وقواعده الراسخة في البعد الروحي للإسلام. وهو علم قائم على القرآن والسنّة

ومشيّد على التوحيد. ومن يتأمل جيدًا في علم التّصوّف، سيكتشف أنه يمثّل روح الإسلام الحقيقية. هو الوجه الحقيقي غير المنظور للإسلام"[1].

1. التّصوّف:

يُعرف التّصوّف على أنه مذهب إسلامي وتجربة إنسانية روحيّة ارتبط ظهوره بظهور الإسلام في القرن السادس الميلادي، فهو يدعو إلى الزّهد في العيّش والأنس بالله والتّركيز على التّجربة الشخصيّة في الحياة والتي يسميها أهل التّصوّف بالتّجربة الصوفيّة وذلك بهدف الوصول إلى المعرفة الإلهية. "يبقى التّصوّف أساسا تجربة روحية خاصة تربط الانسان بربه بأوثق الصلات الايمانيّة العباديّة. وهي علاقة عباديّة ذوقية متسامية بين الانسان وخالقه"[2]. كما تعرف مختلف الديانات والاعتقادات على غرار البوذيّة والمسيحيّة هذا التوجه في العبادة والتواصل مع المعبود باسم الزّهد.

أ. التّصوّف لغةً:

ورد في قاموس لسان العرب لابن منظور مفهوم التّصوّف على الشكل التالي:

"الصوف للضأن وما أشبه، الصوف للغنم كالشعر للمعز والوبر للإبل، والجمع أصواف وقد يقال الصوف للواحدة على تسمية الطائفة باسم الجميع: حكاة سيبوية وقوله:

حلبانةِ ركبانةِ صفوف تخلط بين وبر وصوف"[3].

وجاء في كتاب "التّصوّف" لكل من المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون Louis Massignon، من أشهر الباحثين في التّصوّف الإسلامي، ومصطفى عبد الرزاق تعريف التصوّف على الشكل التالي: "التّصوّف مصدر الفعل الخماسي المصوغ من "صوف" للدلالة على لبس الصوف، ومن ثم كان المتجرد لحياة الصوفيّة يسمَّى في الإسلام صوفيّاً"[4].

ب. التّصوّف اصطلاحاً:

نحاول التّعرف على مصطلح التّصوّف وفق تعريفات مختلفة أوردها المتصوّفة حوله، وقد جاءت على النّحو التّالي:

"(سئل رويم عن التّصوّف فقال: "هو استرسال النّفس مع الله تعالى على ما يريده") تعالى بأن تتمكَّن في الرضا بما يرضاه الله تعالى من الأفعال. (وسئل الجنيد عن التّصوّف فقال: "هو أن تكون مع الله") في سائر أعمالك وأخلاقك وأحوالك وغيرها... (وقال معروف الكرخيّ:

التّصوّف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق) لأنّ من عرف الله وعلم أنّه لا ضار ولا نافع ومعطي ولا مانع غيره اشتغل بما يقرّبه إليه من الحقائق فيلزم من ذلك اعراضه عما في أيدي الخلائق"[5].

وفي السياق نفسه، يعرِّفُ العالِم الصوفي محمد بن بريكة التّصوّف على أنه علم فيقول: "إنّ علم التّصوّف الإسلامي له موضوع هو التّزكية، وإنَّ طبيعة هذا الموضوع ذوقيّة محضة، وإن له منهجًا هو التّربية الرُّوحيّة. وهذا المنهج قائم أساسا على الذّوق فهو بهذين الاعتبارين يحمل مواصفات الذات فإذا أردنا أن نفهمه احتجنا إلى أمرين هما المنهج واللّغة"[6].

كثيرة هي التفاسير والمفاهيم وتعاريف العلماء للتّصوّف الإسلامي وكذلك بداية ظهور هذه الكلمة واستعمالاتها. التّصوّف تجربة إنسانيّة روحيّة قيِّمة، غير أن كل تعاريف تُجمع على أن "جوهر التّصوّف، الذي هو طريقة سلوكيّة بالأصالة قوامها التّقشف والزّهد في الحياة والتّخلي عن الرذائل والتّحلي بالفضائل لتزكو النفس وتسمو الروح"[7].

2. الخطاب الصوفي:

لقد أصبح الخطاب الصوفي يحتل مكانة أقل ما يقال عنها أنها مهمّة داخل المنظومة المعرفيّة والثقافيّة، وهذا راجع بالأساس إلى ثرائه المعرفي وقيمته الروحية والإستسراريّة. فبعد تخطي الخطاب الصوفي الحمولة السلبيّة التي طالته لفترة طويلة من الزمن وذلك بعد سلسلة من الدراسات والأبحاث العلميّة التي أقيمت حول فحوى هذا الخطاب خاصة مع "انفتاح المناهج العلميّة الجديدة على دراسته، حيث أصبح متناً مركزيًا بإمكاننا أن نبحث فيه عن معالم نظرية حديثة، وخاصة ماله علاقة بالسيميائيات والتفكيك والتأويل"[8].

"فحل الإشكاليّة المنهجيّة هو بداية الشرعيّة للأدبيّة الصوفيّة، لأنه ثبت أن التعامل الإيديولوجي مع الخطاب الصوفي لم يعد كافيًا، على الرغم من أهميته، وليس في وسع تعامل كهذا أن يكشف عن البنى النصيّة والمظاهر الخطابيّة وكيفيّة تشكل المعنى في الخطاب الصوفي"[9].

1.2. مظاهر الخطاب الصوفي:

لقد استعمل الصوفيّة لغة خاصّة في التعبير عن مواجيدهم هي لغة التّصوّف الإسلامي. "فكما أن للمتكلمين مصطلحهم الكلامي وللفقهاء مصطلحهم الفقهي وللأصوليّين مصطلحهم

الأصولي فقد كان للصوفيّة مصطلحهم الصوفي ولكنّه ليس سوى جزءاً من اللّغة الصوفية التي تتضمّن المصطلح والرّمز والشّطح والحرف والحكمة والتفسير"[10].

تختلف اللّغة الصّوفيّة في تكوينها وطبيعتها عن اللّغة المستعملة في المجالات الأخرى، فهي تتمتّع بمزايا وخصوصيات منفردة ممّا يجعلها غامضة وصعبة الفهم والاستيعاب لغير المتصوّفة، وفي هذا السياق يقول محمد بن بريكة عن الغموض الذي يحوم حول فهم التّصوّف ولغته: "...الغموض الواقع في فهم التّصوّف الإسلامي له أصلان رئيسيان: أحدهما من ذات التّصوّف هو اللّغة الصّوفيّة، والآخر من خارج التّصوّف هو المنهج الموضوعي في تعامله مع الذوق الصّوفي... أمّا السّبب الذي هو من ذات التّصوّف وهو اللّغة فإننا نجده يتجلى في ثلاثة مظاهر:

أ_ المظهر الاصطلاحي المجرّد كقولك المقام والحال والجذب والسّلوك إلخ...

ب_ الشّطح وهو مظهر غريب يتمثل في استخدام هذه المصطلحات وغيرها في كلام غير مفهوم في كثير من الأحيان وربّما يوهم الكفر في أحيان أخرى.

ج_ الرمز بجميع أنواعه"[11].

بعد أن تخطّى محمد بن بريكة مشكلة اللّغة الصوفية بمختلف جوانبها أي الرّمز والمصطلح والشّطح، طرح التساؤل التالي: "الآن وقد استطعت الإلمام بلغة التّصوّف كيف أقرأ هذا العلم وهو تجربة ذوقيّة في شكلها الأكبر؟ والجواب هو التّالي: إمّا أن أتصوّف لمعانقة الحقيقة الذّوقيّة لهذا المبحث أو أتحرّى الحقيقة بعقل موضوعي قدر استطاعتي"[12]. وبهذا التصوّر العلمي الجديد والمؤسس، تحوّل التّصوّف ومعه الكتابة الصوفية وأصبحا أحد أهم انشغالات الباحثين والمفكرين في مراكز البحث والجامعات في مختلف أنحاء العالم.

ثانيا–ابن عربي الأندلسي وخطابه الصوفي:

1. نشأة ابن عربي:

"هو محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي، من ولد عبد الله بن حاتم أخي عدي بن حاتم، من قبيلة طيِّئ مهد النبوغ والتّفوق العقلي في جاهليتها وإسلامها، يُكنَى أبا بكر ويلقب بمحي الدين، ويعرف بالحاتمي وابن عربي لدى أهل المشرق"[13]. كما يلقب "بشيخ الصوفيّة الأكبر" أو "الشيخ الأكبر"، ولد بمدينة مرسيّة Murcia الواقعة على الشاطئ الشرقي للأندلس في شهر رمضان من سنة 558هـ الموافق لـ 1164م.

في الثامنة من عمره انتقل إلى مدينة اشبيلية بعد دخول الموحدين إلى مرسية سنة 567هـ الموافق لـ 1172م، ففي مدينة اشبيلية التي كانت منبع الإشعاع الثّقافي والعلمي آنذاك في الأندلس، تَلَقَّى ابن عربي تعليمه وتربيته العلمية والروحيّة وأخذ عن علوم من سبقوه كابن سينا والفارابي وابن حزم وكانت له كذلك لقاءات مع علماء من عصره وهو في سن الشباب على غرار لقائه بابن رشد مُمثل الفكر العقلاني وحواره معه، الذي شهد حادثة "نعم ولا". "عندما سأل ابن رشد ابن عربي: كيف وجدتم الأمر في الكشف والفيض الإلهي؟ فأجابه ابن عربي: نعم ولا، وبين نعم ولا تطير الأرواح؛ فاصفرَّ لونه، وقعد يحوقل، وعرف ما أشرتُ به إليه"[14].

وقد عاش الشيخ الأكبر حياته متنقلا بين ضفتيّ البحر الأبيض المتوسط وبين مختلف أرجاء المغرب العربي فقد زار كُلاً من طنجة وتلمسان وبجاية وصولا إلى مصر ومكة، أين اكتملت التّجربة الروحيّة للشيّخ ابن عربي بتجربة عشق جماليّة مع "بنت التقى بها في مكة أيضاً، طفلة عذراء هيفاء، لرجل من أهل العلم والكمال"[15]. وهي بنت مكين الدين أبي شجاع رستم الأصفهاني. وتُلَقّب البنت بعين الشمس والبهاء. وعبّر ابن عربي عن هذه التّجربة في ديوانه "ترجمان الأشواق".

واكتملت معالم هذه الرحلة في دمشق أين كتب آخر مؤلف له "فُصوص الحِكَم" الذي اعتبره أبو العلاء عفيفي "خلاصةً مركَّزة للفكر الأكبري أين لا يمكن الظفر بمذهبه في وحدة الوجود كاملًا في أي كتاب من كتبه – وإن كان الفُصوص أجملها وأشملها من هذه الناحيّة –"[16]. توفي ابن عربي بدمشق ودفن بها، تاركاً وراءه كمًا هائلًا من الكتب والمؤلفات والرسائل قدرها بعض الباحثون بأكثر من ثلاثة مئة مُؤَلف.

شكّلت حياة السفر والطواف ركيزةً في حياة المتصوّف الأندلسي محي الدين ابن عربي، اذ مكّنته من التأمل والملاحظة وإدراك المعرفة الروحيّة من جهة، ومن جهة أخرى التّعرف على الرجال العارفين بالله ومنحته الفرصة للاستفادة من تجاربهم الخاصة ليثري بها حياته وتجربته الخاصة. فهذه الحياة التي غلبت عليها الأسفار والتّنقلات من المغرب إلى المشرق كان لها أثر كبير في تكوين الشّخصيّة الجامعة والموحّدة لابن عربي وفكره وتربيته الروحيّة.

2. خطاب محي الدين ابن عربي:

يُعتبر الخطاب الصوفي بصفة عامة وخطاب ابن عربي بصفة خاصة من أبرز الخطابات عصيًا على الفهم، وذلك راجع بالأساس إلى كلّ ما يتضمّنه من رموز وخيال ومصطلحات خاصة بالتّجربة الصوفيّة أو التّجربة الروحيّة والعِرفانيّة التي عاشها ابن عربي ذاته، فالطابع الروحي الاستسراري لخطابه والمتسم بالضبابيّة والمشبّع بالرمزية غالبا ما يثير غريزة الباحثين ويدفعهم للمغامرة لإزالة غموضه وفضّ رموزه.

"لغة التّصوّف قبل ابن عربي يكاد يجمعها أساس واحد، وهو أنها لغة تعرب عن تأمّل وتجربة متلازمين. ولهذا انحصرت مشكلة متصوفي تلك الفترة في التعبير، واشتركوا في الشكوى من حدود الحرف وعدم طاقته الاستيعابيّة لأبعاد تجربة مطلقة. اذ إن الكلمة لا تستطيع أن تعبر بتطابق كلي عن الحالة المعيشة، فنرى المفردات تتعدد بتسلسل متدرج في محاولة يائسة ساعية نحو التطابق مع التجربة"[17].

"يقول محي الدين اعلم أن أهل الله لم يضعوا الإشارات التي اصطلحوا عليها فيما بينهم لأنفسهم؛ فإنهم يعلمون الحق الصحيح في ذلك؛ وإنما وضعوا منعًا للدخيل، حتى لا يعرف ما هم فيه؛ شفقةً أن يسمع شيئاً لم يصل إليه، فينكره على أهل الله فيعاقب"[18].

"ويقول إن من أعجب الأشياء في الطريق أن ما من طائفة تحمل علماً من المنطقيين والنحات، وأهل الهندسة والحساب والمتكلمين، إلا ولهم اصطلاح لا يعلمه الدخيل فيهم إلا بتوقيف منهم إلا أهل هذا الطريق"[19].

3. البعد الحضاري في خطاب الحبّ لابن عربي:

حياة محي ابن عربي كانت عبارة عن رحلة منقطعة النّظير اقتطف من خلالها من كل مكان زاره وكل قوم عايشه وتعامل معه وكل انسان تبادل وإياه أطراف الحديث أفكارا وأراءًا تختلف في مجملها بحسب الاختلاف والصراع الديني والعقائدي الذي كان يتخبط فيه عصره. غير أن ابن عربي بوصفه شخصيةً جامعةً وجد المعادلة الصحيحة والحل النّاجع للخروج من مأزق الصراع وذلك بالتوجّه نحو تقبّل الآخر واحترامه وذلك من منظور دين الحبّ لابن العربي الذي يتسع لكل المعتقدات ويجمع كل الأديان ويوحدها.

"إن الحبّ كان المعراج النوراني الذي حمله إلى أبراج التسامي الروحي، ودمّر في اعتقاده كل الفوارق الموضوعية ونسف جميع الحدود فلم يبقى إلا الجوهر، وأما الأشكال والمظاهر ليست سوى وهم وسراب"[20].

كما يتميّز خطاب الحبّ لمحي الدين ابن عربي بطابعه الداعي إلى فكرة التّعايش في سلام والتّسامح والحوار بين الأديان والحضارات بغية تفادي الوقوع في مأزق الصراع الذي كان يتخبّط فيه عصره. فهذه الرسالة المشبّعة بالقيم الحضارية أصبحت في حاضرنا ذات أهميّة قصوى بسبب ما نعيشه اليوم من حروب وصراعات عقائديّة. وفي هذا الصدد، قال ابن عربي منذ أكثر من سبعة قرون في ديوانه ترجمان الأشواق[21]:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
لقد صار قلبي قابلا كل صورة فمرعى لغزلاني ودين لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح ثورات ومصحف قرآن
أدين بدين الحبّ أنى توجهت ركائبه فالحبّ دبني وإيماني

يعتَبر الباحث المصري نصر حامد أبو زيد هذه الأبيات "مشروع صاغه ابن عربي صياغة شعرية باسم (دين الحبّ) يجمع بين (الدير) و(الكعبة) و(بيت الأوثان) و (مرعى الغزلان)، فقلب العارف يتسع لكل هذه الصور من العبادات والشعائر، ويؤمن بكل هذه المعتقدات، لأنه يعرف الأصل الوجودي الذي تستند اليه جميعها"[22].

وحتى تتَّضح لنا هذه الرؤية، فإنَّ الإنسان الكامل عند ابن عربي بطبيعته يتقبّل كل الأديان والمعتقدات ويحترمها على أساس أنها حقيقة واحدة. هذه الرسالة الإنسانية جاءت ضمن خطاب الحبّ لابن عربي لترسم معالم الوحدة الحضارية.

"إن الأصل الذي تستند إليه كل الأديان والمعتقدات هو أصل العلاقة بين (الحق) الخالق و(الخلق) المخلوق، وهي علاقة حبّ. في البدء كان (الحبّ)، هكذا يتصور ابن عربي (الحقيقة): كان الله ولا شيء معه، كان كنزا مخفيا فأحبَّ أن يعرف فخلق العالم ليعرفه. هكذا تتحد الحقيقة استنادا إلى التراث الإسلامي مشروحا شرحًا عرفانيًا، يسمح لابن عربي أن يميز فلسفيا بين مفهوم (الدين الإلهي) الواحد، وبين (الأديان والمعتقدات) الكثيرة"[23].

فقد شكّل هذا الخطاب الجامع واليافع النواة الرئيسية التي دفعت الغرب والإسبان إلى التوجّه إلى ترجمة مؤلفات محي الدين ابن عربي إلى اللّغات الغربيّة واللّغة الإسبانية، لأنهم رأوا فيه مجالًا خصبًا للدراسة كما أنه صالح في زمن ما بعد الحداثة كونه يعرض حلولًا للمشاكل والصراعات والعنف الذي تتخبّط فيه مجتمعاتنا اليوم. وفي نفس السياق يقول الباحث محمد شكور:

"*La grandeza de los hombres excepcionales es que su obra no pierde vigencia ni su mensaje cae en el olvido. Los preclaros tienen la extraordinaria facultad de ver lejos y escrutar las entrañas del provenir. La visión inteligente de Abu Bakr Muhammad Ibn Ali Ibn Mohammed al-Hatimi at-Tai al Arabí…, en lo tocante al futuro, ha sido profética*"[24].

(تكمن عظمة الرجال الاستثنائيين في كتبهم التي لا تهمَّش وفي عدم وقوع رسالتهم في خبايا النسيان. فأصحاب البصيرة لديهم خاصيّة النَّظر إلى ما هو أبعد والتدقيق في أحشاء المستقبل. إنَّ الرؤية الذكية لأبو بكر محمد ابن علي ابن محمد الحاتمي الطائي العربي...، فيما يخص المستقبل كانت نبوئية) (ترجمتنا).

فإنه وعلى الرّغم من مرور قرونٍ عن كتابة ابن عربي لمؤلفاته، مازالت تتمتّع هذه الأخيرة بالقيمة الحضارية نفسها وهذا يعود بالأساس إلى النَّظرة الذكيّة والثاقبة لابن عربي للمستقبل. "ثم إن فكر ابن عربي وفلسفته في العقل والكشف لا تنسجم فحسب مع الأسئلة التي يطرحها زمن ما بعد الحداثة وإنما تقدم الجواب، هذا الجواب الذي تكمن فيه فلسفة ابن عربي التي تنشد الكمال للإنسان وهو كمال لا يمكن أن يتحقق إلا بسيادة القيم وفتح المجال أمام القلب للتقلب في فضاء المطلق، ويتعالى الإنسان عن غيب الحصر والتقيد"[25].

ثالثا–ترجمة الخطاب الصوفي لابن عربي:

1. عند الغرب:

لطالما كانت شخصيّة محي الدين ابن عربي مجهولة وغير معروفة من طرف الغرب بصفة عامة والاسبان بصفة خاصة حتى بداية الدراسات الاستشراقيّة التي اهتمت بالشَّيخ الأكبر كشخصيّة مركزيّة في فهم الإسلام والتّصوّف الإسلامي بالخصوص، إذ يعد **ميشيل شودكيفيتش Michel Chodkiewicz**من الباحثين الغربيين المعاصرين الأكثر اهتماما ودراسة وترجمة لابن عربي، يذهب إلى أن البدايات الأولى لالتقاء الغرب بابن عربي تعود إلى سنة 1845 حيث نشر **جوستاف فلوغ Gustav Flugel** أحد تلامذة **سيلفيستر دي ساسي Silvester de**

Sacy,(1758-1838) كتاب التعريفات للجرجاني ونشر بذيله كتاب ابن عربي الموسوم بـ اصطلاحات الصوفية[26].

وحسب محمد شوقي الزين فإن الدراسات المتعلقة بابن عربي بدأت مبكرًا بالترجمات والتوضيحات التي قام بها الباحث ومؤسس الدراسات الأكبرية **ميشيل فالسان Michel Valsan** (1930)[27].

إن هذه المكانة لفكر ابن عربي لم تتحقق إلا بعد ترجمة نصوص كثيرة ودراسات استشراقيّة عديدة تطورت كمًا وكيفًا، من السطحيّة إلى كثير من العمق والتمحيص. بعضها كان لها طابعا وصفيا هدفها التعريف بابن عربي وملامح تصوّفه والبعض الآخر كان دراسات علمية متخصصة قائمة على المنهج التحليلي مثل كتابات **ميشيل شودكيفيتش** و**كلود عداس Claude Addas** .

وقد أشار ساعد خميسي (2010) إلى مجموعة من الدراسات والترجمات التي أقيمت على الفكر الصوفي لابن عربي وخطابه من طرف الغرب، ومن بين الدراسات "كتاب **هنري كوربان Henry Corbin** (1903-1978): " *L'imagination créatrice dans le soufisme de Ibn Arabi*, Paris, 1958" "الخيال الخلاق في تصوّف ابن عربي" ثم كتاب يقارن بين **لوتزو** و**ابن عربي**: " *Toshihico Izutsu, sufism and taoism, Tokyo*, 1966" "التّصوّف والطاوية" لـ: "**توشيكو إزوتسو**" ، ومن الكتب المهمة عن ابن عربي ما ظهر من ترجمات وتعليقات عن كتبه خاصة الفتوحات والفُصوص، ونذكر هنا:

- Ibn' Arabi, « Le Livre du Nom de Majesté » (kitab al – jalala), trad. Michel Valsan in études Traditionnelles, paris, 1948.
-Charles-André Gilis, « Les Clés des Demeures Spirituelles dans les Futuhat d'Ibn' Arabi » In René Guénon et L'avènement du troisième Sceau, Paris, 1991"[28].

2. ترجمة خطاب ابن عربي إلى اللّغة الإسبانية:

على أرضه الأم أين ترعرع ابن عربي وتربى وتلقى دراسته وأصول فكره المتوهّج، لم يحظَ الشيخ الأكبر بالاهتمام ولم يذاع صيته، فقد بقيَّ مجهولًا في ثنايا التراث الفكري الإسباني ولدى الإسبان حتى بداية القرن التاسع عشر، حيث جاءت دراسات وأبحاث وترجمات الكاتب والمستشرق

الاسباني الراهب **ميغيل أسين بلاثيوس Miguel Asin Palacios** (1871-1944)، من بين أعماله "الإسلام المتمسِّح" " *el Islam cristianizado* " وهو دراسة في التّصوّف الإسلامي من خلال أعمال ابن عربي. وتعد سنه 1919 انطلاقة الدراسات الإسبانية لابن عربي وذلك حين ألقى **أسين بلاثيوس** محاضرة مُتميّزة بالأكاديمية الملكيّة الإسبانيّة تحت عنوان "*La escatología musulmana en la «Divina Comedia»*" "الأخرويات الاسلامية في الكوميديا الإلهية" وفي هذه المحاضرة أثار "بلاثيوس" قضيّة تأثير ابن عربي على "دانتي" وهي قضية لا يزال الحديث عنها موصولا حتى يومنا هذا[29].

لتلي هذه المحاضرة دراسات وترجمات عديدة لأعمال ابن عربي من طرف **اسين بلاثيوس** نفسه الذي استطاع من خلالها أن ينفض عن جزء صغير من فكر ومعرفة الأندلسي محي الدين ابن عربي الغبار الذي طاله لقرونٍ.

وأشار الباحث **فيرناندو مورا Fernando Mora** في حديثه عن متصوّفة الأندلس أن ابن عربي كغيره من العلماء والمتصوّفة في تاريخ اسبانيا، بقيَّ غير معروف تماماً على أرضه الأصلية، فعلى يد الراهب الأراغوني **ميغيل أسين بلاثيوس** تلميذ الكاتب المؤرخ **Menéndez Pelayo مينيدث بيلايوس** (1856-1912)، بدأ انقاذ ارث محي الدين ابن عربي من ثنايا تاريخ اسبانيا الثقافي. والغريب في الأمر، رغم العمل الكبير والترجمات المنجزة من طرف **أسين بلاثيوس**، سمحت بإظهار جزء صغير فقط من كنز حكمة ابن عربي[30].

فمن خلال هذه الفكرة يشير **فيرناندو مورا** إلى العمل المكثف والدراسات المعمّقة التي يجب إنجازها لاكتشاف شخصية الحكيم محي الدين ابن عربي. وذلك من خلال ترجمة أعماله التي تتجاوز في مجملها حسب تقدير بعض الباحثين بأكثر من ثلاثة مئة مؤلف حتى يتسنى للإسبان التعرّف على ابن عربي من جديد، فبهذا يسعى الاسبان ومن خلال خارطة طريق واضحة المعالم استرجاع كنزٍ كان في وقت مضى يجول ويصول بين أرجاء الأندلس ليصبح كنزًا منسيًا في أدراج التراث الثقافي الإسباني.

وحول أهمية الخطاب الأكبري يقول **José Valdivia Valor خوسي فالديفيا بالور**:

> "*la importancia del mensaje de Ibn al-Arabí en nuestros días es patente a tenor del gran número de estudios, traducciones y reediciones que se están produciendo*"[31].

(تتجلى أهمية رسالة ابن عربي في أيامنا هذه في العدد الهائل من الدراسات والترجمات والمطبوعات التي يجرى انتاجها) (ترجمتنا).

فهذه الدراسات والترجمات لمؤلفات محي الدين ابن عربي ترجع بالأساس إلى أهمية رسالة الشيخ الأكبر في أيامنا هذه. فعلى غرار **ميغيل أسين بلاثيوس** الذي بدأ غمار البحث فيها وترجمتها إلى اللّغة الإسبانية، اليوم هنالك العديد من الأكاديميين والمفكرين في مختلف الجامعات الإسبانية يقومون بترجمة ودراسة أعمال الشيخ الأكبر نذكر من بينهم **خوسي ميغيل بويرتا فيلشز José Miguel Puerta Vilchez**من جامعة غرناطة الذي لديه عدة دراسات حول فكر ابن عربي من أبرزها محاضرته بجامعة محمد الخامس بالمغرب والموسومة بـ:*"Yusuf en el universe imaginario de Ibn Arabí"* "سيدنا يوسف في عالم الخيال لابن عربي" و من جامعة مدريد **أندريس غيخارو Andrés Guijarro** الذي ترجم كتاب "فُصوص الحِكم" لابن عربي: *"Los engarces de las Sabidurías"* (2009).

وكذلك **بابلو بينييتو Pablo Beneito** أستاذ بجامعة مرسيّة الاسبانية ومتخصّص في ابن عربي، قام بترجمة مجموعة أشعار صوفيّة من بينها أشعار الشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي وجمعها في كتابه الموسوم بـ "*La Taberna de las luces"* (2004) "حانة الأنوار".

فبعد ترجمة أعمال مختلفة لابن عربي إلى اللّغة الإسبانية، تم اكتشاف التّصوّف التّقليدي لابن عربي في اسبانيا من جديد وذلك من خلال بحوث أكاديمية مختلفة بالجامعات الاسبانية حول فكر الشّيخ الأكبر، كما كانت هنالك محطات للتذكير بابن عربي على غرار احياء الذكرى 850 بعد وفاته سنة 2014 اين عُرِض مشروع "مرسيّة ابن عربي" "*La Murcia de Ibn Arabi"* وقُدِّمت أيضا محاضرات وأُقيمت ندوات فكرية حوله في مختلف المدن الإسبانية لمدة سنة، كما شهدت هذه الذكرى حلقات رددت فيها أشعاره باللّغة الإسبانية.

كما يجدر التنويه بالعمل الكبير الذي تقوم به مؤسسة "*MiasLatina"* "مياس لاتينا" التي تأسست سنة 1977 بمدينة مرسيّة الاسبانية للتعريف بإرث ابن عربي من خلال عدة نشاطات ثقافيّة كإقامة محاضرات، ندوات في مختلف بلدان العالم وعرض أفلام وثائقية حول ابن عربي وغيرها من النشاطات. كما تصدر عنها مجلّة سنوية تحت عنوان: "*El Azufre Rojo"* "الكبريت الأحمر" تعنى بالدراسات حول ابن عربي.

خاتمة:

لاستخلاص كل ما ورد في هذه الورقة البحثية حول ترجمة الخطاب الصوفي لابن عربي، يمكن القول أنَّ هذا الزخم والمكانة المرموقة التي صار يحظى بها محي الدين ابن عربي مؤخرًا تعود بالأساس لما لفكره الإنساني من قيمة معرفية صالحة لزماننا هذا في حل الاختلافات الفكرية والعقائدية التي من الممكن أن تكون بؤرًا للصراع.

ومن هنا يُمكننا التأكيد على أنَّ الترجمة قد تجاوزت حدود دورها في فكِّ اللُّبس والغموض عن اللّغات والربط فيما بينها إلى نفض وإزالة الغبار عن تراث فكري ومعرفي ظل حبيس الأدراج طيلة قرونٍ، لتمنح للغرب عامةً والاسبان خاصةً فرصة التّعرف على قامة فكرية كالشيخ الأكبر والتّفاعل مع خطابه من جديد بعد الانكار الذي طاله في أرضهم التي ولد بها.

في ظل هذه المؤشرات، نستطيع القول أنّ الترجمة بوصفها وسيلة للحوار قد تمكنت من فك شيفرة الخطاب الصوفي لابن عربي بإعطائه قيمة حضارية تجلت في اهتمام الغرب والاسبان وتفطنهم لفكره القائم على نظرة ذكية واستشرافية، تقدم حلول للمشاكل والصراعات التي نعاني منها اليوم.

هوامش:

[1] حسين غباش، التّصوّف معراج السالكين إلى الله، دار الفارابي، لبنان، 2018، الطبعة الثانية، ص 27.

[2] المصدر نفسه، ص 27.

[3] ابن منظور جمال الدين الافريقي المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، 2000، ص 307.

[4] ماسينيون، مصطفى عبد الرزاق، التَّصوّف، ترجمة إبراهيم زكي خورشيد، آفاق، القاهرة،2019، ص 25.

[5] مصطفى لعروسي، نتائج الأفكار القدسية، دار الكتب العلمية، لبنان، 1971، الجزء الرابع، ص 9.

[6] محمد بن بريكة، التّصوّف الإسلامي من الرّمز إلى العرفان، دار المتون، الجزائر، 2006، ص 25.

[7] شريف الدين بن دوبة، "التّصوّف والسلم مقاربة أخلاقية"، التّصوّف أبحاث ودراسات، دار الأمان، الرباط، 2015، الطبعة الأولى، ص 86.

[8] آمنة بلعلي، تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2010، الطبعة الأولى، ص 9.

[9] المصدر نفسه، ص 11.

[10] محمد بن بريكة، التّصوّف الإسلامي من الرّمز إلى العرفان، دار المتون، الجزائر، 2006، ص 83.

[11] المصدر نفسه، ص 25.

[12] المصدر نفسه، ص 27.

[13] محمد عبد الباقي سرور، محي الدين ابن عربي والتصوّف، تبارك للنشر والتوزيع، مصر، 2019، ص 15.

[14] المصدر نفسه، ص 21.

[15] المصدر نفسه، ص 76.

[16] أبو العلاء عفيفي، فصوص الحكم لمحي الدين ابن عربي والتعليقات عليه، دار الكتاب العربي، لبنان، 1946، ص 11.

[17] سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، دندرة للطباعة والنشر، لبنان، 1981، ص 15.

[18] محمد عبد الباقي سرور، محي الدين ابن عربي والتصوّف، تبارك للنشر والتوزيع، مصر، 2019، ص 205.

19 المصدر نفسه، 205.

[20] قدور رحماني، ابن عربي وديوانه ترجمان الأشواق، دار الكتاب العربي الجزائر، 2005، ص 209.

[21] محي الدين ابن عربي، ترجمان الأشواق، دار المعرفة، لبنان، 2005، ص 62.

[22] نصر حامد أبوزيد، هكذا تكلم ابن عربي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2006، ص 14.

[23] المصدر نفسه، ص 15.

[24] Mohammed Chakor, la vigencia del mensaje de Ibn Arabí, Los Dos Horizontes, editora regional de Murcia, Murcia, 1992, pp 124.

[25] محمد المصباحي، ابن عربي في مرآة ما بعد الحداثة، أبن عربي في أفق ما بعد الحداثة، 2003، جامعة محمد الخمس، المغرب، ص 26.

[26] ساعد خميسي، ابن عربي المسافر العائد، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2010، ص 51.

[27] Mohammed Chawki Zine, Ibn Arabi Gnoséologie Et Manifestation De L'être, Edition El-Ikhetilef, Algérie, 2013, pp 28.

[28] ساعد خميسي، ابن عربي المسافر العائد، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2010، ص 53.

[29] المصدر نفسه، ص52.

[30] Fernando Mora, Ibn Arabí Vida Y Enseñanza Del Gran Místico Andalusí, Editorial Kairos, Barcelona, 2011, pp 12.

[31] José Valdivia Valor, "Maestro Máximo" sufí de ayer y de hoy, Los Dos Horizontes, editora regional de Murcia, Murcia, 1992, pp 452.